مركز النشر العلمي والترجمة
جامعة القصيم
Center of Scientific Publishing and Translation
Qassim Uinversity

مجلة العلوم العربية والإنسانية
Journal of Arabic Sciences & Humanities
مجلة دورية علمية محكمة ربع سنوية

E-ISSN: 1658-9602
www.jahs.qu.edu.sa

الحجاج بالباتوس في نماذج من الخطابة العربيّة القديمة

عبداللطيف بن محمد الجفن

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والعلوم الإنسانية، جامعة القصيم، بريدة، المملكة العربيّة السعوديّة

17، (4)، شوّال، 1445
April, 2024

الملخص

الغاية من هذا البحث دراسة الباتوس من حيث هو وسيلة من وسائل الإقناع. والهدف بيان أصنافه، وكيف تشكّل في الخطابة العربيّة القديمة، وإبراز العناصر المكوّنة له، والنظر في المصادر التي يستمد منها طاقته الحجاجيّة؛ ليكون سبيلا إلى تحقيق الاستجابة الذهنيّة. وسيعتمد هذا البحث على المنهج الوصفيّ التحليليّ، وينطلق من تصوّرات الباتوس في بلاغة الحجاج، وتحديدا الحجاج البلاغيّ سواء في البلاغة القديمة أو البلاغة الجديدة. وهو يرمي إلى الوصول إلى مجموعة من النتائج من أبرزها نجاح الخطيب في مشروعه الحجاجيّ عن طريق الباتوس واقتناع السامع بالقضيّة التي عرضها عليه .

الكلمات المفتاحيّة: الباتوس، الأهواء، الخطابة، التأثير، الإقناع

Abstract

The paper entitled "An argumentation by Balbatos in examples of ancient Arabic rhetoric" aims to explain the types of Albatos, how it was used as a means of persuasion and how itw as formed in ancient Arabic rhetoric, showing its constituent elements, and investigating the sources from which it derives its argumentation, to be a way to achieve mental agreement. This paper is based on the descriptive analytical method, and it starts from pathos' perceptions of the argumentation rhetorical, specifically the rhetorical argumentation, whether in ancient rhetoric or new rhetoric. The main results showed that the success of the orator in his argumentative project through the pathos and the listener's conviction of the case he presented to him.

Keywords: Patos, Passions, Rhetoric, Influence, Persuasion.

الإحالة APA Citation:

الجفن، عبداللطيف. (2024). الحجاج بالباتوس في نماذج من الخطابة العربيّة القديمة. *مجلة العلوم العربية والإنسانية*، *17*، (4)، 100-112.

استلم في: 27-05-1445/ **قُبل في** 3-07-1445/**نُشر في** 15-10-1445

Received on: 11-12-2023/**Accepted on:** 15-01-2024/**Published on:** 24-04-2024

CC BY NC

1. المقدمة

يُمكن اعتبار الباتوس من أهم القضايا التي شهدها التفكير البلاغيّ سواء في البلاغة القديمة أو البلاغة الجديدة (جلالي وبن يحي، 2022)، لا سيما بعد أن أُقصي من إستراتيجيّات الإقناع في مرحلة طويلة من تاريخ البلاغة (الولي، 2011)، وعاد في البلاغة الجديدة اليوم ليستأثر باهتمام بالغ من البلاغيّين والباحثين، يمكن الحديث معها عن بلاغة الباتوس (صولة، 2010).

ويثير الباتوس مسائل عدّة مختلفة من قبيل المواضع التي ينشأ منها، والوظائف التي يمكن أن ينهض بها في الخطاب، وكيفيّة تشكّله خطابيًّا سواء كان صريحًا أو مضمرًا عن طريق جملة من السمات الأسلوبيّة التي لا تنحصر في المعجم، بل تتعدّاه إلى التراكيب، والصيغ الصرفيّة، والظواهر فوق المقطعيّة (عبيد، 2011).

ويتلازم الباتوس مع الإيتوس واللوغوس، في الحضور في الخطابات، وإذا كان الإيتوس يحيل على المكوّن الذاتيّ واللوغوس يحيل على المكوّن العقليّ فإنّ الباتوس يحيل على المكوّن الانفعاليّ. ينبغي التمييز بين الحجاج بالباتوس والحجاج للباتوس، ففي الحجاج بالباتوس تكون العاطفة وسيلة من وسائل الإقناع التي يلجأ إليها الخطيب للتأثير في السامع، وإقناعه أو حمله على الاقتناع، "فالكلمات غالبا ما تسبّب المشاعر، وتعبّر عنها، وبالفعل قد تكون أكثر الأسباب شيوعًا لحالات الشعور"(فروش، 2015، ص. 15). وأمّا الحجاج للباتوس فتتحوّل بمقتضاه العواطف إلى موضوع خلافيّ بين المتخاطبين، يحاول كلّ طرف حمل الطرف الآخر على الاعتقاد في صحّة ذلك الشعور (عبيد، 2011).

ويفيد الباتوس عند أرسطو المشاعر والانفعالات والأهواء والأحاسيس والنوازع، وهو "كلّ التغييرات التي تجعل الناس يغيّرون رأيهم فيما يتعلّق بأحكامهم، وتكون مصحوبة باللذّة والألم، مثل: الغضب، والرحمة، والخوف، وكلّ الانفعالات المشابهة، وأضدادها" (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980، ص. 103-104). ويعدّ الباتوس الحجّة الصناعيّة الثانية ضمن الحجج الصناعيّة الثلاث إلى جانب حجّة الإيتوس، وحجّة اللوغوس. وقد ترجمها عبد الرحمن بدوي بالتصديقات، حيث يقول أرسطو: "والتصديقات التي يقدّمها القول على ثلاثة أضرب: الأوّل يتوقّف على أخلاق القائل، والثاني على تصيير السامع في حالة نفسيّة مّا، والثالث على القول نفسه من حيث هو يُثبت أو يبدو أنّه يُثبت" (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980، ص. 29).

ورغم ارتباط الباتوس بثنائيّة اللذّة والألم؛ فإنّ دلالته لم تكن قارّة في التفكير البلاغيّ سواء القديم أو الحديث، فقد رأى بيرلمان أنّ الحجج المنطقيّة لا يمكنها أن تتحاشى الباتوس، وبحث في الطرق التي بها تتحدّد أحوال المتلقّين، والخطباء، في المشاركة على حدّ سواء، ومقبوليّة المقدّمات التي تعتمد عليها الحجّة، ومقبوليّة صيغ الاستدلال التي تُوجّه بها الحجّة (سلوان، 2016). ومهما اختلفت التصوّرات حول الباتوس فإنّه يظلّ المكوّن العاطفيّ الانفعاليّ في الخطاب، والهادف إلى إحداث استجابة ذهنيّة انطلاقا من الانفعالات والأهواء.

ولما كان التنظير للباتوس مرتبطًا بالخطابة في نشأته، فلا شكّ في أنّه سيكون أبرز في الخطابة مقارنة بغيرها من أنواع الخطابات الأخرى؛ وفي هذا الإطار سيدرس هذا البحث الباتوس انطلاقا من نماذج من الخطابة العربيّة القديمة، وهو يهدف إلى النظر في أصناف الباتوس، ومظاهر القيمة الحجاجيّة في الحجج القائمة على استدعاء الباتوس، والوقوف على وظائفها في التأثير والإقناع.

وسيعتمد البحث على المنهج الوصفيّ التحليليّ، ويستعين بمنطلقات بلاغة الحجاج لا سيّما الحجاج البلاغيّ عند أرسطو، وقد تعرّض الباتوس للبحث والدراسة في بعض الدراسات السابقة، ومن أبرز تلك الدراسات الوثيقة الصلة بهذا البحث دراسة عبد القادر قادا، ولكنّ قادا درس الباتوس في الخطابة الغربيّة واقتصر على خطّبة "لديّ حلم" لمارتن لوثر كينغ (قادا، 2020). ودرس محمّد مشبال إستراتيجيّة الأهواء في التفكير البلاغيّ وأشار إشارات موجزة لخطب الحجّاج والخطبة الدينيّة الوعظيّة، فضلا عن تركيزه على التشكيل الخطابيّ للأهواء (مشبال، 2018). وسيركّز هذا البحث على حجّة الباتوس في نماذج من البلاغة العربيّة القديمة، وينظر في أنواعها وطاقتها الحجاجيّة ومفعولها الحجاجيّ ؛ وسيحاول الإجابة عن أسئلة عدة من أبرزها:

ما أنواع حجّة الباتوس في البلاغة العربيّة القديمة؟

كيف تكتسب حجّة الباتوس قيمتها الحجاجيّة في البلاغة العربيّة القديمة؟

ما وظائف حجّة الباتوس في البلاغة العربيّة القديمة؟

2. الحجاج بالباتوس الإيجابيّ

رأى أرسطو (ت 322 ق.م، ط 1980) أنّ الانفعالات "تكون مصحوبة باللذّة أو الألم" (ص. 104). وبناء على هذا الربط يمكن تقسيم الانفعالات قسمين، يمكن الاصطلاح على الأوّل بالباتوس الإيجابيّ، ويمكن الاصطلاح على الثاني بالباتوس السلبيّ. ويشمل الباتوس الإيجابيّ عدّة انفعالات من أبرزها، الرغبة، والأمن، والفرح، والصداقة، والاغتباط والشفقة. ويتكوّن الباتوس السلبيّ من عدّة انفعالات من أهمّها الغضب والخوف والكراهية والحسد والحقد.

وذهب أرسطو (1980) إلى أنّ كلّ انفعال ينظر فيه وفق ثلاثة مستويات:

أوّلها: الحالة النفسيّة التي تجعل الإنسان يشعر بشعور مّا.

وثانيها الأشخاص المستهدفون بذلك الشعور أو الذين يمكن إثارة ذلك الشعور فيهم.

وثالثها: الأسباب الكامنة وراء نشأة ذلك الشعور.

وكانت الانفعالات المرتبطة بالباتوس الإيجابيّ من أكثر الحجج تواترا في الخطابة العربيّة القديمة، وسيقتصر البحث على دراسة ثلاثة أنواع منها؛ هي الرغبة والشفقة والغبطة، لكونها المهيمنة، وأكثرها هيمنة باتوس الرغبة؛ ولذا يمكننا أن

نتساءل عن: كيف يثير الخطيب عاطفة الرغبة؟ ومن هم الذين يمكن إثارة رغباتهم؟ وما الأسباب التي تنشأ منها الرغبة؟، وسنجيب عن ذلك فيما يأتي:

1.2.الحجاج بباتوس الرغبة

الرغبة لغة من "رَغِبَ يَرْغَبُ إذا حَرَصَ على الشيءِ، وطَمِعَ فيه" (ابن منظور، ت 711 هـ، ط 1، 2009، ص. 7452.)، وهي ضدّ الرهبة. والرغبة في الشيء إرادته والسعي إليه. وعرّف التوحيدي الرغبة بأنّها: "حركةٌ تكون من شهوةٍ يرجى بها منفعة" (التوحيدي، ت 400 هـ، ط 1، 2009، ص. 467). ثم بيّن أنواعها في قوله: "الرغبة إذا كانت نطقية كانت مبعثةً على التحلي بالفضائل، وإذا كانت سبعيةً أو بهيميةً كانت ملهجةً بمواقعة أضدادها من الرذائل" (التوحيدي، ت 400 هـ، ط 1، 2009، ص. 467)، فالرغبة حركة نفسيّة، أو إحساس ينتاب الإنسان فيدفعه إلى تحقيق أمر يعود عليه بالنفع المعنويّ أو المادّيّ.

ومن أمثلة استدعاء عاطفة الرغبة؛ لحثّ الناس على أمر مّا أو تنفيرهم منه في الخطابة العربيّة القديمة ما ورد في خطبة طارق بن زياد قبل فتح الأندلس: "واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظّكم فيه أوفر من حظّي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة؛ وليكون مغنمها خالصًا لكم دونه، ومن المؤمنين سواكم. والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الداريْن" (صفوت، 1923، ص. 300-301).

وردت هذه الخطبة في عناصر سياقيّة مختلفة، وكان طارق بن زياد واعيًا بها. فالمسلمون منقطعون عن أراضيهم، وأهاليهم، ويفصلهم عنهم البحر. ثم هم في أرض غريبة تتنفّس عداوة وشرًّا. وأمامهم عدوٌّ شديدُ البأسِ، كثيرُ العدد والمدد. وكان لزامًا على طارق بن زياد بوصفه القائد أن يهيّء جيشه للقتال والخروج من هذا الامتحان الصعب. ولعلّه قدّر أنّ الحجج العقليّة وشبه المنطقيّة في مثل هذه المقامات لن تجدي نفعًا، ولعلّه كذلك قدّر أنّ الحجاج بالعواطف السلبيّة كالخوف من القتل أو الأسر والتعذيب قد تؤدّي إلى نتائج سلبيّة، فاختار الحجاج بالعواطف الإيجابيّة، واستدعى حجّة باتوس الرغبة، لما قد تثيره من حماسةٍ في الجيش، وتحرّضه على القتال بأقصى طاقة.

واستمدّتْ حجّة باتوس الرغبة قوّتها الحجاجيّة من خمسة مصادر: تمثّل المصدر الأوّل في الظفر بالحور الحسان الموجودات في الأندلس، وتعلّق المصدر الثاني بمصاهرة ملوك الأندلس وأمرائها وكبار القوم فيها، وتعلّق المصدر الثالث بمكانتهم عند أمير المؤمنين، فهم النخبة المختارة التي ميّزها أمير المؤمنين من سائر الناس. وتمثّل المصدر الرابع في الاستئثار

بجميع الغنائم، وعدم توزيعها على غير الجنود المشاركين في القتال، وتعلّق المصدر الخامس بما سيترتّب على نصرهم من منافع في الدنيا والآخرة.

ولا شكّ في أنّ هذه المصادر ستوقد الشعور بالرغبة في الظفر بكلّ تلك المنافع المادّيّة والمعنويّة. ورغم أنّ المغانم التي ذكرها طارق بن زياد في خطبته هي مغانم مشروطة الوقوع بالنصر في المعركة؛ فإنّها ستحرّك شعور الجنود، وتحفّزهم على الصمود والاستبسال بمجرّد حضورها في "موقع الصدارة في الوعي" (بيرلمان، 2022، ص. 107).

وكان لحجّة باتوس الرغبة مفعولٌ قويٌّ، فقد تمكّنت الرغبة في الظفر بالمنافع المختلفة من نفوس المقاتلين، فاستبسلوا في القتال، وهزموا جيش الملك القوطي لذريق بعد معركة طاحنة. وورد ذكر نتائج تلك المعركة في مختلف الكتب التي عرضت لفتح الأندلس (المقّري، ت 1041 هـ، ط 1، 2009).

2.2.الحجاج بباتوس الشفقة

عدَّ أرسطو الشفقة نوعًا من الألم الذي يثيره منظر الشرّ الذي يصيب من لا يستحقّه. ويشعر الإنسان بالشفقة حين يتخيّل نفسه أو أحد أصدقائه وذويه مكان الإنسان الذي تعرّض للمعاناة والشرّ والظلم، أو يتوقّع أن يحدث ذلك في المستقبل. ومن دواعي الشعور بالشفقة: الموت، والإهانة، وسوء المعاملة، والفقر، والشيخوخة، والمرض، والعاهات، وحرمان المرء من أصدقائه وذويه. ويشعر الإنسان بالشفقة على الناس الآخرين، وأمّا أقاربه فينتابه الفزع والذعر متى حلّ بهم مكروهٌ ظلمًا (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980).

وقد عمدت العرب قديما –لا سيما في خطبها القضائيّة أو الاجتماعيّة– إلى استثارة عاطفة الشفقة؛ للتأثير في السامع، وكسب تأييده. ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي: "جرى بين أبي الأسود الدؤلي، وبين امرأته كلام في ابن كان لها منه، وأراد أخذه منها، فسارا إلى زياد، وهو والي البصرة، فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هَذَا ابْنِي، كانَ بَطْنِي وِعَاءَهُ، وَحِجْرِي فَنَاءَهُ، وثديي سِقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى إذا استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكعت أوصاله، وأملت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه منّي كرهاً، فآدني أيها الأمير، فقد رام قهري، وأراد قسري. فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله. فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمله خفاً، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرها. فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها فهي أحقّ به منك، ودعني من سجعك" (صفوت، 1923، ص. 376).

جاءت أطروحة الزوجة متعارضة مع أطروحة زوجها أبي الأسود الدؤلي. فهي تحاول الاستئثار برعاية الابن، والإبقاء عليه معها، ومنع زوجها من افتكاكه وحرمانها منه. فاختارت من وسائل الإقناع الحجاج عن طريق باتوس الشفقة، أملا في التأثير في الأمير زياد، وحمله على الانتصار لها، والحكم لها بحضانة ابنها.

واستمدّت حجّة باتوس الشفقة قوّتها الإقناعيّة من ثلاثة مصادر: تعلّق المصدر الأوّل بسبب الشعور بالشفقة، فقد صوّرت المرأة نفسها في صورة الإنسان الذي تعرّض للإهانة، وسوء المعاملة والحرمان من أقرب الناس إليه. وتعلّق المصدر الثاني بإثارة الشعور بالألم لدى الأمير؛ بسبب الشرّ الذي ألحقه بها زوجها. ولا شكّ في أنّ الأمير سيتخيّل حصول هذا الشرّ لأقرب النساء إليه، مثل: أخته أو ابنته. وأمّا المصدر الثالث فتعلّق بطبيعة العلاقة بين المرأة والأمير. فهو ليس من أقاربها فيصيبه الفزع للشرّ الذي لحقها، وإنّما هو من سائر الناس الذين سيشعرون بالشفقة عندما يرون شرّا أصاب من لا يستحقّه.

وكان لحجّة باتوس الشفقة مفعولٌ حجاجيٌّ قويٌّ، فقد شعر الأمير بالشفقة؛ نتيجة الشرّ الذي أصاب المرأة، فأصدر حكمًا يناسب تلك الحالة النفسيّة التي صيّرته المرأة فيها. فاستهزأ بأبي الأسود الدؤلي آمرًا إيّاه بالكفّ عن "سجعه"، والتنازل عن الابن لأمّه.

والملاحظ هنا، أنّ أبا الأسود الدؤلي بوصفه خصم الزوجة، قد استعمل الحجّة نفسها، وهي حجّة باتوس الشفقة، وصوّر نفسه في صورة من تعرّض للشرّ. ولكنّ الأمير نهره، ولم يتأثّر بكلامه، ولم يقتنع بحجّته. ويقدّر الباحث أنّ الأمير تأثّر بحجّة باتوس الشفقة الواردة في خطاب المرأة، ولم يتأثّر بمثيلتها الواردة في خطاب أبي الأسود الدؤلي؛ لكون عاطفة الأمومة أقوى من عاطفة الأبوّة؛ ولأنّ المرأة أقدر من الرجل على تربيّة الناشئة.

3.2.الحجاج بباتوس الغبطة

انطلق أرسطو من التعريف القائل بأنّ الغبطة "هي شعورٌ بالألم ناشئٌ عن مشاهدة خيراتٍ عالية القيمة، من الممكن أن نحصل عليها، في حوزة من هم أشباهنا بالطبع. وهذا الألم لا ينشأ عن كون الغير يملكونها، وإنّما لأنّنا نحن لا نملكها" (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980، ص. 138). والغبطة على خلاف الحسد، فإذا كان الحسد هو اغتمامٌ بخيرٍ يناله من يستحقّه؛ فإنّ الغبطة هي فرحٌ بخيرٍ يناله من يستحقّه. ولذلك عدّ أرسطو الغبطة خيرًا وصفةً للأخيار، والحسد شرًّا وصفةً للأشرار (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980).

ومن الأسباب الداعيّة إلى الشعور بالغبطة امتلاك المغبوط للخيرات ذوات القيمة العالية، وكذلك الفضائل والخصال المفيدة لسائر الناس. ويشعر بالغبطة من كان من كبار النفوس، وأمّا المغبوطون فهم أشراف الناس؛ بسبب المزايا والفضائل التي حصلوا عليها، مثل: الثروة والمناصب ووفرة الإخوان والشجاعة والكرم والوفاء والمروءة (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980).

ومن الأمثلة على الحجاج بباتوس الغبطة في الخطابة العربيّة القديمة قول الحجّاج بن يوسف الثقفيّ في خطبة له: "أيّها الناس، والله لتقاتلنّ عن بلادكم وعن فيئكم أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والغيظ منكم، فيقاتلون عدوّكم، ويأكلون فيأكم. فقام إليه الناس من كلّ جانب، فقالوا: نحن نقاتلهم" (صفوت، 1923، ص. 444).

جاءت هذه الخطبة بعد أن هزم شبيبُ جيشَ الحجّاج بقيادة عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث. فخطب الحجّاج في الناس، وحرص في أطروحته على تحفيزهم على قتال جيش شبيب. وبسبب ضغط الأحداث، وهول الخطر؛ اختار الحجّاج من وسائل الإقناع الحجاج بالعواطف، فاستدعى حجّة باتوس الغبطة؛ للتأثير في الناس، وحملهم على الاستعداد لقتال جيش شبيب.

وظهرت القوّة الحجاجيّة في حجّة باتوس الشفقة التي استعملها الحجّاج في مستويَيْن: تعلّق المستوى الأوّل بالممتلكات السابقة التي يمتلكها القوم الذين سيرسلهم الحجّاج عوضًا عن الناس المخاطَبين. فهم يمتلكون خصالًا جمّةً، ومزايا عدّةً، تجعلهم من أشرف الناس، فهم أطوع الناس، وأسمعهم لأمرائهم، وهم أصبر الناس على القتال ومجالدة الخصوم، وهم أشدَّ الناس قتالاً. وهذه الخصال ستستثير الشعور بالغبطة لدى الناس الذين يخاطبهم الحجّاج، فتجعلهم يتمنّون أن يمتلكوها. وليس أمامهم للبرهنة على امتلاكها غير الاستجابة للحجّاج والاستعداد للقتال.

وتعلّق السبب الثاني بالممتلكات اللاحقة التي سيمتلكها أولئك القوم، فهم بعد النصر على جيش شبيب سيفوزون بالغنائم، وينتفعون بها. وهذه الممتلكات المادّيّة المنتظرة ستحرّك الشعور بالغبطة لدى الناس الذين يخاطبهم الحجّاج، فتجعلهم يتمنّون امتلاكها، والظفر بها قبل أن يمتلكها القوم الذين سيستعين بهم الحجّاج، فيسارعون إلى تلبية نداء الحجاج، والخروج إلى قتال جيش شبيب.

كان لحجّة باتوس الغبطة مفعولٌ حجاجيٌّ قويٌّ وفوريٌّ، عبّرَ عنه راوي الخطبة في قوله: "فقالوا: نحن نقاتلهم". وتكشف هذه الاستجابة الجماعيّة الخالية من التردّد والتهرّب والمماطلة، مدى تأثير حجّة باتوس الغبطة في نفوس الناس، وسرعة استجابتهم لما طلبه منهم الحجّاج.

3. الحجاج بالباتوس السلبيّ

ترد مجموعة من الانفعالات مصحوبة بالألم –حسب أرسطو، ويمكن الاصطلاح على تلك الانفعالات بالباتوس السلبيّ. ونظرا إلى تواتر الحجاج بالباتوس السلبيّ في الخطابة العربيّة القديمة، سيكتفي البحث بدراسة أبرز تلك الأنواع، ويكشف دورها في التأثير في السامع وإقناعه أو الزيادة في درجة التأثير والاقتناع بما يعرض عليه الخطيب من أطروحات. ومن بين تلك الحجج حجّة باتوس الرهبة.

1.3.الحجاج بباتوس الرهبة

تفيد الرهبة معنى الخوف (ابن منظور، ت 711 هـ، ط 2009). وعرّف أرسطو الخوف بأنّه "حزنٌ أو اضطرابٌ ناشئٌ عن تخيّل شرٍّ داهم سيسبّب تدميرًا أو أذى" (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980، ص. 118). ولكي يشعر الإنسان بالخوف ينبغي جعله يعتقد أنّه معرّض للألم والشرّ. ولا يخاف الإنسان من الشرور البعيدة الوقوع، وإنّما يخاف الشرّ

الداهم؛ لأنّه يشكّل خطرًا قريب الوقوع، ويخاف كذلك العلامات الدالّة عليه. وتلك العلامات هي الكراهية والغضب، فهما من الوسائل التي يكشف عنها من يقدر على إيقاع الضرر بالآخرين.

ويخاف الإنسان من بعض الأشياء في بعض الأوقات، ويخاف كذلك من الذين يتوقّع منهم صدور الأذى، ومن بينهم الظالم الذي يبالي بالشرّ الذي يسلّطه على غيره، وكذلك الساعي إلى الانتقام والأخذ بالثأر، والمنافس الذي ينافس غيره على الشيء نفسه، والمتغلّب على القويّ، فهو أقوى منه، ويشكلّ مصدرًا للخوف بالنسبة إلى الآخرين. وأمّا الذين لا يخافون فهم أولئك الذين في نعمة سابغة، ولهم سلطة أو ثروة أو أعوان، وكذلك الذين عانوا كلّ البلايا، ولم يعودوا يحفلوا بأيّ شرّ ينتظرهم في المستقبل (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980).

وقد وردت في الخطابة العربيّة القديمة حجج كثيرة قائمة على استدعاء باتوس الرهبة، ومن ذلك ما ورد في خطبة الحجّاج بن يوسف الثقفيّ في أهل العراق: "أما والله فإني لأحمل الشر بثقله، وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله، وإنّي لأرى أبصارًا طامحةً، وأعناقًا متطاولةً، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأنّي أنظر إلى الدماء بين اللحى والعمائم تترقرق. وإنى والله يا أهل العراق، معدن الشقاق والنفاق... طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي، أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.. وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهمّ إلّا أمضيت.. وإنّي أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيّام إلّا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله" (صفوت، 1923، ص. 275-277).

جاءت خطّبة الحجّاج بن يوسف الثقفيّ في سياق تاريخيّ مليء بالاضطرابات والمحن. وقد كلّفه عبد الملك بن مروان الخليفة الأمويّ بالقضاء على الفوضى والتمرّد في العراق، وإحكام سيطرته عليه، وإخضاعه للسلطة المركزيّة في دمشق، وتسيير أهله لمحاربة المتمرّدين. ولعلّ الحجّاج كان يدرك أنّ نجاح خطبته مرهونٌ إلى حدّ كبير بمعرفة حال السامع، أو افتراض ذلك الحال افتراضًا مسبقًا (الشهري، 2004). فاستعمل الحجاج بالعواطف السلبيّة، واختار من تلك الحجج حجّة باتوس الرهبة.

واكتسبت حجّة باتوس الرهبة التي استعملها الحجّاج قوّتها الحجاجيّة من مصدريْن: تعلّق المصدر الأوّل بأسباب الخوف، وقد عدّدها الحجّاج في نهاية خطبته، وهي القتل ونهب المال وهدم المنزل. وهي أسباب من شأنها أن تزرع الخوف في أيّ إنسان، وتحمله على الاستجابة لكلّ طلب ينجيه من تلك الشرور التي يمكن أن تحلّ به.

وأمّا المصدر الثاني فتعلّق بمصدر الخوف، وهو الحجّاج، ومن ورائه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. وكان الحجاج حريصًا في خطبته على تصوير نفسه في صورة الجبّار الذي لا يرحم، ولا يتوانى لحظة واحدة في إلحاق الأذى والشرّ بكلّ من يتوقّع منه أنّه لم يستجب لأوامره. وهذه الصورة كفيلة بتحريك مشاعر الخوف لدى السامعين، وحملهم على الاستجابة لما عرضه عليهم الحجّاج بن يوسف الثقفي في خطبته من الانضباط والتوجّه لقتال الأعداء.

وقد كان لحجّة باتوس الرهبة مفعولٌ قويٌّ وسريعٌ، فقد حصر الخطيبُ السامعين في "محيط انفعاليّ" (شارودو، 2011، ص. 294) أخضعهم له، لا سيّما بعد أن انتقل الحجّاج من مرحلة التهديد والترهيب إلى مرحلة التنفيذ، فقد قتل عمير بن ضابئ التميمي؛ لما التمس منه إعفاءه من قتال الأزارقة. وأثبت المراجع التاريخيّة أنّ الناس بعد أن أخذوا أعطياتهم تجهّزوا لقتال الأزارقة مع المهلّب، وانطلقوا "على وجوههم يريدون المهلب، فازدحموا على الجسر حتى سقط بعضُ الناس في الفُرَات" (المسعودي، ت 346 هـ، ط 1، 2009، ص. 1059).

2.3.الحجاج بباتوس الغضب

عرّف أرسطو الغضب "بأنّه شهوةٌ، مصحوبةٌ بألم، للانتقام الحقيقيّ أو الظاهريّ؛ بسبب إهانة حقيقيّة أو ظاهريّة تنال الشخص نفسه أو أحد أصدقائه، إذا كانت هذه الإهانة بغير حقّ" (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980، ص. 104). ويغضب الإنسان حين يتألّم، أو يُمنع من شيء مّا أو يضايقه شخص مّا، أو يكون الواقع على خلاف ما يتوقّع. فكلّ من يرغب في شيء ولا يستطيع نيله يكون مهيّأً نفسيًّا للغضب؛ لأنّ الألم الحاضر في نفسه يمهّد السبيل إلى الغضب (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980).

ويغضب الإنسان من كلّ من يستهزئ به، أو يسخر منه، أو يتهكّم عليه، أو يؤذيه أو يعامله بقسوة أو يحتقر أشياء هي مصدر فخر بالنسبة إليه. ويزداد الغضب قوّة إذا كانت تلك الأفعال صادرة من صديق. فالغضب ينشأ في الإنسان من أفعال أُرتُكبت ضدّه، ويقترن كذلك بنوع من اللذّة الراجعة إلى الأمل في الانتقام المنتظر، فالغاضب يرغب في رؤية ما سيحدث، وأن يتألّم المغضوب عليه. ولا يسكن الغضب أو يزول إلّا بتوفّر مجموعة من المسكّنات، من بينها الأخذ بالثأر من الجاني نفسه، أو ممّن يتّصل به إذا لم يكن الجاني كفوًا للغاضب. وكذلك بنزول شرور بالجناة أعظم ممّا كان ينتظره الغاضب (أرسطو، ت 322 ق.م، ط 1980).

وسيبيّن الباحث القيمة الإقناعيّة في حجّة باتوس الغضب انطلاقًا من المثال الآتي: "يا أيّها الناس، إنّكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنّهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم وسفكوا دمائكم [هكذا]... فالقوهم بجدٍّ وحدٍّ، فإنّما مَهَنتكم (جمع ماهن، وهو العبد والخادم) وعبيدكم وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ويطؤوا حريمكم" (صفوت، 1923، ص. 429-430).

ورد هذا المثال في خطبة المهلّب بن أبي صفرة وهو يحث جنوده على قتال الأزارقة، إحدى أبرز فرق الخوارج. وقد اختار المهلّب من حجج الباتوس حجّة باتوس الغضب؛ لإيقاد الحماسة في صدور جنده.

واكتسبت حجّة باتوس الغضب طاقةً حجاجيّة من ثلاثة مصادر: تعلّق المصدر الأوّل بأسباب الغضب. فالأزارقة أُسندت إليهم أفعال كثيرة، يمكن تصنيفها صنفيْن: تحقّق الصنف الأوّل في الزمان الماضي، وكان ضدّ المسلمين عامّة، وهو الخروج على السنّة والجماعة وأولي الأمر، بل والسعي إلى تغيير الواقع بحدّ السيف. وأمّا الصنف الثاني من الأفعال المسندة إلى الخوارج فيشمل الأفعال المنتظر وقوعها متى انتصر الخوارج على جيش المهلّب. وهي الفتنة في الدين وسفك

الدماء، وافتكاك العتاد والممتلكات، واستباحة الحريم. ويتولّد عن الفعليْن الأخيريْن الامتهان والاستعباد والاستنقاص في الحسب والدين. وسيكون المستهدف بجميع هذه الأفعال جنود الجيش. وجميع هذه الأفعال سواء الواقعة في الماضي أو التي يُنتظر وقوعها تمثّل شرًّا ارتكبه الأزارقة ضد المسلمين عامّة وجيش المهلّب خاصّة، وتسبّب لهم الألم. ولا شكّ في أنّ هذه الأفعال ستثير عاطفة الغضب في صدور جيش المهلّب، وتدفعهم إلى الصمود في وجه جيش الأزارقة وقتاله بكلّ بسالة وبأس.

ويتعلّق المصدر الثاني من مصادر الطاقة الإقناعيّة في حجّة باتوس الغضب بالأشخاص المغضوب عليهم، وهو جيش الأزارقة، فينبغي لجيش المهلّب إلحاق الأذى بهم. وأمّا المصدر الثالث فيتعلّق بسكون الغضب. فينبغي لجيش المهلّب ألّا يسكن غضبه إلّا بعد أن يلحق بجيش الأزارقة ألما يفوق الألم الذي تسببّ فيه، والألم الذي كان سيتسبّب فيه إذا انتصر على جيش المهلّب.

وكان لحجّة باتوس الغضب تأثيرٌ كبيرٌ في نفوس جيش المهلّب، وقد كان جيش المهلّب في قتال مستمرّ مع الأزارقة والخوارج، إلى أن انتصر عليهم. و"لما دفع المهلب الخوارج من البصرة إلى ناحية الأهواز أقام بقية سنته يجبي كور دجلة، ورزق أصحابه، وأتاه المدد من البصرة حتى بلغ أصحابه ثلاثين ألفاً. فعلى هذا تكون هزيمة الخوارج سنة ست وستين" (ابن الأثير، ت 630 هـ، ط 1، 2009، ص. 1857.).

4. الخاتمة

تبيّن ممّا تقدّم أنّ هذا البحث قد حقّق هدفه المتمثّل في دراسة بعض أنواع حجّة الباتوس اعتمادا على نماذج مختارة من الخطابة العربيّة القديمة. وقد وصل إلى مجموعة من النتائج تتمثّل فيما يلي:

– تواتر حجّة الباتوس في الخطابة العربيّة القديمة، وكان الخطباء كثيرًا ما يفّضلون استعمالها على الحجج الأخرى، مثل الحجج العقليّة لا سيما في السياقات التي يستدعي الإقناع فيها التركيز على العاطفة.

–جاءت حجّة الباتوس على نوعيْن: قام النوع الأوّل على الباتوس الإيجابيّ، وشمل المشاعر والأحاسيس التي تولّد اللذّة لدى السامع، مثل: مشاعر الرغبة والغبطة والشفقة وغيرها. وقام النوع الثاني على المشاعر التي تكون مصحوبة بالألم، مثل: مشاعر الرهبة والغضب والكراهية وغيرها.

–اكتسبت حجّة الباتوس قوّتها الإقناعيّة أي قيمتها الحجاجيّة من ثلاثة مصادر عموما: يتعلّق أوّلها بالحالة النفسيّة التي تجعل السامع يشعر بشعور معيّن، ويتعلّق الثاني بأسباب نشأة تلك العاطفة التي قصد الخطيب تحريكها. وأمّا المصدر الثالث فيتّصل بتحديد الأشخاص أو الأشياء التي تستهدفها تلك العاطفة.

– لحجّة الباتوس دور في الإقناع يتمثّل في تأثيرها القويٍّ في السامع، فبعد أن يستثير الخطيب عاطفة مّا من عواطف السامع تبدأ تلك العاطفة عمليّة التأثير في العقل. وبناء على ذلك تتغيّر مواقف السامع وقراراته بناء على تلك العاطفة

التي أثارها الخطيب في داخله. فتكون العاطفة مدخلا للتأثير في العقل وتغيير مواقفه. وكان ذلك شأن السامع في الخطابة العربيّة القديمة، فهو سرعان ما يستجيب لما يعرض عليه الخطيب من أطروحات بمجرّد أن يحرّك عاطفة من عواطفه تخدم تلك الأطروحة.

وبذلك فإنّ حجّة الباتوس صارت وسيلةً من أهمّ وسائل الإقناع؛ نظرا إلى نجاعتها وفاعليّتها، فهي سبيلٌ سهلٌ موصلٌ إلى السيطرة إلى عقل السامع، وجعله يُذعن لما يقترحه عليه المتكلّم من مواقف ووجهات نظر. وذلك ما يجعل الباتوس مكوّنًا أساسيًّا من مكوّنات بلاغة كلّ خطاب.

مراجع البحث:

أرسطو. (1980). *الخطابة*، (عبد الرحمن بدوي، ترجمة)، دار الرشيد للنشر، بغداد.

ابن الأثير، عزّ الدين. (2009). *الكامل في التاريخ، موسوعة الشعر العربيّ*، الإصدار 1.

بيرلمان، شاييم. (2022). الإمبراطوريّة الخَطابيّة صناعة الخطابة والجدل، ط 1، (الحسين بنوهاشم، ترجمة)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت.

التوحيدي، أبو حيّان. (2009). *الإمتاع والمؤانسة، موسوعة الشعر العربيّ*، الإصدار 1.

جلالي، علي؛ بن يحي، ناعوس. (2022). موقع الباتوس في أهمّ النظريات الحجاجيّة الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، *مجلّة جيل الدراسات الأدبيّة والفكريّة*، *8*،(1)، 340-352.

الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (2004). *إستراتيجيّات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة*، ط 1، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت.

سلوان، توماس أوكونور. (2016). *موسوعة البلاغة*، ط 1، (عماد عبد اللطيف، إشراف وتقديم، وترجمها نخبة)، المركز القوميّ للترجمة، القاهرة.

شارودو، باتريك. (2011). الحجاج وإشكال التأثير، (ربيعة العربي، ترجمة). **في** حافظ إسماعيلي علوي (محرر.)، *الحجاج والاستدلال الحجاجيّ: دراسات في البلاغة الجديدة*، ط 1، (ص ص 291-311)، دار ورد الأردنيّة للنشر والتوزيع، عمّان.

صفوت، أحمد زكي. (1923). *جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزاهرة*، ط 2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة.

صولة، عبد الله. (2010). البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، **في** حافظ إسماعيلي علوي (محرر.)، *الحجاج: مفهومه ومجالاته: دراسة نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة*، ج 1، ط 1، (ص ص127-161)، عالم الكتب الحديث، إربد.

عبيد، حاتم. (2011). منزلة العواطف في نظريّة الحجاج، *مجلّة عالم الفكر*، *40*، (2)، 239-270.

فروش، ستيفن. (2015). *المشاعر*، ط 1، (عبد الله عسكر، ترجمة). المركز القومي للترجمة، القاهرة.

قادا، عبد العالي. (2020). الباتوس في الخطاب الاحتجاجيّ خطبة لديّ حلم لمارتن لوثر كينغ أنموذجا، *مجلّة جيل الدراسات الأدبيّة والفكريّة*، (64)، 27-40.

المسعودي، علي بن الحسين. (2009). *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، موسوعة الشعر العربيّ، الإصدار1.

مشبال، محمد. (2018). *في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات*، ط 1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان.

المقّري، أحمد بن محمّد. (2009). *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب*، موسوعة الشعر العربيّ، الإصدار 1.

ابن منظور، جمال الدين. (2009). *لسان العرب*، موسوعة الشعر العربيّ، الإصدار 1.

الولي، محمّد. (2011). مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، *مجلّة عالم الفكر*، *40*،(2)، 11-40.

Al-Arabi, in Al-Hajjaj wa al-estedlal al-hijaji, dirasat fi al-balagha al-jadida, 1st edition, supervised by Hafez Ismaili Alawi, Jordanian Ward House for Publishing and Distribution, Amman.

Al-Masoudi, Ali bin Al-Hussein. (2009). Mourouj al-dhahab wa maaden al-jawhar, Encyclopedia of Arabic Poetry, Issue 1.

Al-Muqari, Ahmed bin Muhammad. (2009). Nafah Al-Tayeb fi Ghusn Al-Andalus Al-Ratib, Encyclopedia of Arabic Poetry, Issue 1.

Al-Shehri, Abdul Hadi bin Dhafer. (2004). Estratijiyet al-khitab mokaraba loghawiya tadawomiya, 1st edition, New United Book House, 1st edition, Beirut.

Al-Tawhidi, Abu Hayyan. (2009). Al-emtou wa al-mouanasa, Encyclopedia of Arabic Poetry, Issue 1.

Al-Wali, Muhammad. (2011). Madkhal ila khatabet Aflatoun Aresto Chaiim Perman, Alam Al-Fikr Magazine, No. 2, Volume 40, p 11-40.

Aristotle. (1980). The Rhetoric, translated by Abdul Rahman Badawi, Al-Rasheed Publishing House, Baghdad.

Charaudeau, Patrick. (2011). Argumentation and the Problem of Influence, translated by Rabia

Frosh, Stephen. (2015). Feelings, 1st edition, translated by Abdullah Askar, National Center for Translation, Cairo.

Ibn al-Atheer, Izz al-Din. (2009). Al-Kamil fi al-Tarikh, Encyclopedia of Arabic Poetry, Issue 1.

Ibn Manzur, Jamal al-Din. (2009). Lisan al-Arab, Encyclopedia of Arabic Poetry, Issue 1.

Jalali, Ali, Bin Yahya, Naous. (2022). Mawqaa al-pathos fi aham annadhariat al-hijajia al-gharbia men Aresto ila al-yawm, Jil addirasat al-adabia wa al-fekria, vol. 8, no. 1, pp. 340-352.

Mishbal, Muhammad. (2018). Fi balaghet al-hijej Towards a argumentation nahwa moukaraba balaghia hijajia fi tahlil al-khitabet, 1st edition, Dar Treasures of Knowledge for Publishing and Distribution, Amman.

Obaid, Hatem. (2011). Manzilat al-awatef fi nadhariet al-hijaj, Alam Al-Fikr Magazine, No. 2, Volume 40, 239-270.

Perelman, Chaiim. (2022). The Rhetorical Empire, The Making of Rhetoric and Debate, 1st edition, translated by Al-Hussein Bin Hashem, United New Book House, Beirut.

Qada, Abdel-Aali. (2020). Al-pathos fi al-khitab al-ehtijaji Khoibet ladaya holm li Martin Luther King onmoudhajan, Jil addirasat al-adabia wa al-fekria, no. 64, 2020, 27-40.

Safwat, Ahmed Zaki. (1923). Jamharet Khotab Al-arab fi osour al-arabiya al-zahira, 2nd edition, Mustafa Al-Bani Al-Halabi and Sons Library and Printing Company, Cairo.

Sawla, Abdullah. (2010). Al-balagha al-arabiya fi dhaw al-balagha al-jadida (Aw al-hijaj), Dhemna kitab Al-Hijaj mafhoumoho wa majalatoho, vol. 1, 1st edition, Modern World of Books, Irbid.

Sloan, Thomas O'Connor. (2016). Encyclopedia of Rhetoric, 1st edition, translated by Nokhba, supervised and presented by Imad Abdel Latif, National Center for Translation, Cairo.

معلومات عن الباحث

د. عبد اللطيف بن محمّد الجفن، أستاذ مشارك، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلّيّة اللغات والعلوم الإنسانية، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السعوديّة. حاصل على درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، من جامعة الملك سعود عام 2016. وتدور اهتماماته البحثيّة حول البلاغة القديمة والجديدة والنظريّات النقديّة.

Biographical Statement

Dr. Abdul-Latif Mohammed Al-Jafen, is an associate professor at Department of Arabic Language and Literature, College of Languages and Humanities, Qassim University, Saudi Arabia. Dr. Al-Jafen received his PhD degree in 2016 from King Saud University. His research interests include ancient and new rhetoric and critical theories.

Email: ajfn@qu.edu.sa